صور من التاريخ الإسلامي

الفردوسى

للأستاذ عبد الحميد العبادى

تمـــــة

بينت فى مقالى السابق السبب الذى من أجله يكبر الفرس الفردوسى ويعدونه شاعرهم القومى فقلت إن الفردوسى بنظمه « كتاب الملوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوى ، رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع للثانية منهجاً ظلت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى بهذا الصنيع الجليل قد هيأ السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة فى تاريخ الشرق الحديث

ولكن ما السبب فى أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسى وتجله ، ولم تتحاش أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكراه الألفية ؟ وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال

* * *

يعد الفردوسى عند علماء الأدب ونقاده شاعراً قصصياً من شعراء الطبقة الأولى ، فهو فى مرتبة هوميروس ودانتى وملتن . والشاعر القصصى العظيم هو الذى ينشىء ملحمة أى منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم . وحظ هـــذه المنظومة من الذيوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فاذا كان الشاعر قد اخترع الموضوع اختراعاً وتخيله تخيلاً ثم أفرغ عليه بعـد ذلك ثوب بلاغته وقوة تصويره فهى ملحمة محدودة الذيوع ، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب فى الجامعات . ومن هذا الصنف « المهزلة » لدانتى و« الجنة المفقودة » لملتن . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحكايات الشائعة فى قومه ، وأساطيرهم التى يعتقدونها ، وأغانيهم التى يتغنون فيها بذكر ما اختلف عليهم من الأحداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً ، وكان فى ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثنايا الخاص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة ، ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعشره ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب لملحمته الذيوع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث المونق المحكم محل القديم المبعثر المتفرق ، فتنسخ الملحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التى تصور فعالها ، وعلى مر الزمن تنفذ الملحمة من حدود المحلية والأقليمية وتشيع فى أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أثراً أدبياً عالمياً . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الألياذة والشاهنامة التى نحن بصدد الكلام عليها

والشاهنامة تسترعى اهتمام غير واحـد من خاصة المتأدبين ، فاللغوى يطالع فيها صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعى يجد فيهـا عوناً على تصور المجتمع الفارسى القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، والمعنى بالأساطير القديمة ينتفع بها انتفاعاً جماً فى دراسة الميثولوجيا الايرانية والمقارنة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منها صورة مجملة لعقائد الايرانيين القدماء ، والمؤرخ السياسى يرجع إليهـا فى دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيها صدى قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذى تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعانى وقوة التصوير يرى فى الشاهنامة مُثلاً عُليا لكل ذلك . فالفردوسى يعرج فى سماء البلاغة حتى يسامى النجم ، وهو فى الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصاف مبدع ، إذا تصدى لوصف واقعة حربية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجرى فيـه من كرّ وفر ، وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلمع ، والحراب تشرع ، وأسمعك تصايح الكماة ، وصهيل الخيل ، وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب . فاذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثـل لعينك أسباب السرور ودواعيه وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع فى المجلس من صفاء النفوس ، واختلاط القلوب ، فاذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، وولع العاشق ، ووفاء الزوجة وإخلاص الصديق . لقد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجميل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما

* * *

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامة هى عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخاً ، ولا إلى اظهار بلاغته بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجانب التعليمى من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكا حينا طريق الحقيقة وحينا طريق المجاز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاهنامة خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعانى التى ينبو عنها الأدب والذوق السليم . . بهذه المزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعته الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإنه كانت « الأليادة » تنمى فينا عاطفة الحياء والغضب للحق ، وفضيلة الأيثار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت « مهزلة » دانتى تعرفنا بطريقتها الزمزية أى أساليب الحياة يؤدى فى الآخرة إلى الثواب وأيها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تقوى الروح الدينى فى نفس القارىء ، فان الشاهنامة ترمى إلى تهذيب النفس وتكميلها

وفلسفة الشاهنامة الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الأيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد

والأيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يتعمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الايمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شرة القلوب العاتية . ولنمثل لذلك من الشاهنامة نفسها : فعند ماخرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سيا وخسر) جعل يدعو الله أن ينصره على عدوه . تقول الشاهنامة[1] « وبعد ذلك اغتسل الملك كيخسرو ودخل متعبداً لهم ، وجعل طول ليلته يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خده بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويستعين به عليه ، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه وفر خصمه من وجهه وأعياه طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه » . تقول الشاهنامة « فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه فى مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكى ويتضرع اليه سبحانه ويقول (إن هذا العبد الضعيف الموجع الجسم والروح طاف الدنيا ، فسلك رمالها وقفارها ، وقطع جبالها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذى أنت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك بغير الحق دماء العباد ، وأنت تعلم أنى لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك ، فمكنى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فاصرفنى عنه ، وأطفئ من قلبى ثائرة عداوته وقف بى على سواء الطريق والنهج القويم) وعند ماغمر الثلج أسفنديار وأصحابه فى طريق (هفتجوار) الوعر الشاق ووجد ذلك البطل الغوار نفسه أمام قوة لاقبل له بها لم يسعه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى فتقول الشاهنامة « فبينما هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم الثلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسفنديار . . . وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس بنفعنا الآن رجولة ولا قوة . والرأى أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا اليه ، فانه الكاشف للضر والقادر عليه . فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكت الهواء وانجلت السماء »

* * *

والأصل الثانى من أصول الفلسفة الأدبية «لكتاب الملوك» القيام بالواجب ، والشاهنامة تعنى بهذا الأصل الذى هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامة أقومهم بواجبه ، وواجب الملك فى رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد فاذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان فى الضروع ، ولم يأرج المسك فى النوافج ، وشاع الزنا والربا فى الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد ، وعاثت الذئاب وضربت بالأنس ، وتخوف ذوو العقول من ذوى الغواية والجهل ، » وعهد كسرى أنو شروان لابنه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التى تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته

وبطولة أبطال الشاهنامة تستند إلى شعورهم القوى بالواجب . أنظر كيف لبى رستم طلب (جيو) إنقاذ ابنه (بيژن) وكان مقيداً مغلولاً فى مطمورة مظلمة بأرض طوران . وقوله له (لانهم

(١) انظر الترجمة العربية للشاهنامة

فانى لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيد بيژن وأضعها فى يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ! إن أمى ما ولدتنى إلا لطاعتك ، وتحمل المكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى فى امتثال أمرك ، ولا أسلك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشفار فى عينى شفاراً) وقول (أكشهم) لبيژن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب النافع لا تحمل على نفسك كل هذا ، فانه أشد على مما أنا فيه . واستر جراح رأسى بالترك ، واجتهد فى حملى الى حضرة الملك ، فان قصارى بغيتى ، وغاية أمنيتى ، أن أتزود منه بنظرة ، وأقر عينى بطلعته ولو لحظة ، واذا مت بعد ذلك مت وليس فى قلبى حسرة ، فانى لم أولد الا للموت ، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت ، وأيضاً تجتهد فلملك تستطيع أن تحمل هذين العدوين اللذين أهلكهما الله على يدى إلى المعسكر ، وان لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك ، ليعلم أنى ما هلكت فى غير شئ)

وروعة شخصية المرأة فى الشاهنامة تقوم على وفور حظها من الأنوثة والوفاء لزوجها ، يدل على ذلك نواح (تهمينة) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيژة) لزوجها (بيژن) فى محنته مع ان أباها كان المسلط على عذابه

وكما تفرض الشاهنامة القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فانها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدى الواجب . فينبغى أن نؤدى الواجب على بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق ، وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين بطلى الشاهنامة (رستم) و (أسفنديار) عند مالج بهما اللجاج وحمى الخصام ، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس الفردوسى ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن الينا ولو كان حيواناً أعجم . أنظر بأى قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزالة التى كان طرده لها سبباً فى وقوعه على عين ماء روى منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لازلت يا غزالة الريف ، تفيئين الى الظل الوريف ، وتكرعين فى الزلال المعين ، وتتقلبين بين الورد والياسمين ، وأعيا قوس راعك أنباضه : فلا زالت متقطعة أوتاره ، فانك سددت رمقى وشفيت غلتى »

* * *

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامة الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحثنا فى غير موضع من كتابه على أن ننقى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رستم لاسفنديار :

« . . . . وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين »

والفردوسى لا يكتفى بأن يندب قارئه الى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً فى ذلك طريقة العرض الدرامى التى نلحظها فى أكبر الملاحم والقصص . نلحظها فى آثار هوميروس ، وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملتن ، ودستويفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر الى حادث رائع مفظع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيهز بذلك قلب القارىء ويمخضه ، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المر يتجرعه المريض على مضض ، ولكنه تكون فيه سلامته من علته ؛ وقد بلغ الفردوسى بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص مايشغف القلب حسنه ، ويسحر اللب بيانه . انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه ! تقول الشاهنامة :

« ... ثم تناوشا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تمطر من سيوفهما ، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فمدا أيديهما الى عموديهما ، ورفعاها ، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأدراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجافيف على خيلهما ، فضعفا ، ووقفت دوابهما ، وبقيا من العرق غريقين ، ومن العطش محترقين ، فوقف الأب من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما الى الآخر . فيا عجبا ! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب ؟ والأبل من غلظ أكبادها ، تعطف على أولادها ، والطيور فى جو السماء ، والحيتان فى قعر الماء ، لاتنكر أولادها وأفراخها ! والانسان من فرط حرصه تخفى عليه فلذة كبده ويستنكر قرة عينه ولا ينزع الى ولده ! »

ثم يقول رستم : «لم أر قط قتالاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائى من رجولتى » فاذا ما استأنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه : «إنى أرى أن نخلع الجوشن ، ونطرح

السيف ، وتكف عن القتال ، فان قلبي يميل كل الميل اليك ، وإن وجهي ليضمره الحياء منك » ولـكن يخيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه الى المبارزة ، فيتغلب الأب ويصرع ابنه ، ويجثم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يتبين له ، وقد سبق السيف العزل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ، ويحاول استنقاذه من براثن الموت فيعجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن فى صـدر رستم ، ويصيح من فرط العـذاب : « من الذى أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذى فجع بمثل ما به فجعت ؟ قتلت ولدى حين شـاب رأسى وانقضى عمرى ! »

إن القارىء ليتابع مشـاهد هذه القصة وقلبه يتوثب فى صدره فرقا وذعراً . فاذا بلغ الى الـكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمعه أسى وحزناً ، وهذا الذى قصد اليه الشـــاعر رغبة منه فى أن يمكن فيه لعاطفتى الحنو والرحمة

ولا يقف الفردوسى عند هـذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد فى أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يجلو لها تقلب هذه الدنيـا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضعاف النفوس ، ولـكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية منالاً وهو على عادته يعمد الى أقوى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته راسياً بذلك الى أن نأخذ الدنيا كما هى فنفرح بها إذا أقبلت فى غير اغترار بها ؛ ولا نأسى عليها إذا هى أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجح فلسفة الرواقيين الذين يريدوننا على أن نتجرد من العاطفة جملة ، فلا نفرح ولا نحزن ، ولا نغضب ولا نعتب . انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر المجن ، وتجهم له وجه القـدر ، فآل أمره الى أن وقع أسيراً فى يد رجل عابد فشد وثاقه واضطره الى أن يخاطبه بقوله « أيها العابد ! ماتريد من رجل اختفى فى مغارة ضيقة » فلما عنفه العـابد على ما احتقب من أوزار قال « بهذا جرت على أقلام قضاء الله فى الأزل ، ومن المعصوم فى هذه الدنيا الغـدارة من الزلل ؟ » وإن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقرباً بدمه الى الاسكندر ليجرى مجرى حديث أفراســياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا ، وهى ترينا الفردوسى جبرياً يرى أن الانسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعاً ولا ضراً

* * *

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، تخليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها . والزهد فى الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامة الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً فى صرف قلوبنا عن أن تفتن بالدنيا ولـكن فى غير اخلال بالواجب الذى يفرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تصويره الحال المعنوية للملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه ، وأزمع التخلى عن الملك ، والذهاب فى الأرض ، فقد عهد إلى ابنه ، وودع أكابر الدولة « ثم سار . . . . وصحبه رءوس الأيرانيين . . . . إلى أن صعد إلى جبل ، فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج فى أثره نساء الأيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس ، يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف دستان ، ورستم وجودرد ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فنزلوا هناك ، وقال لهم الملك : اذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة ، فباتوا ليلتهم عند العين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام الملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن الثلج غداً يسد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس ركب الملك ، وغاب عن أعينهم »

وحديث الاسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهـل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى فى تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

* * *

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب فى تقدير غير الفرس للفردوسى وللشاهنامة ، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هـذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامة إلى العربية الفصحى فى أوائل القرن السابع الهجرى (١) ، وأن الشاهنامة قد نقلت إلى أشهر اللغات الأوربية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم فى غاية الدقة والعناية والأتقان !

عبد الحميد العبادى

(١) وقد نشر زميلى الدكتور عزام هذه الترجمة نشراً علمياً متقناً